

## الهوية السودانية من منظور جغرافي

محمد كباشي عبدالله

كلية علوم الجغرافيا والبيئة - جامعة الخرطوم

### مستخلص:

ناقشت الورقة أهمية قضية الهوية السودانية على الصعيدين السياسي والاجتماعي. كما ناقشت قضية الهوية في السودان من حيث تعريف وتحديد مفهوم الهوية في إطارها العام. ثم استعرضت الورقة كذلك مكونات الهوية كما وضعها علماء الاجتماع. وناقشت كل محدد من تلك المحددات في حالة الهوية في السودان. وخلصت لبعض التوصيات التي من شأنها المساهمة في بناء الهوية في السودان بناءً متماسكاً يساعد على بناء الوحدة الوطنية السودانية.

وهناك تعكس ضعف البناء القومي. وفي

ممارساتنا الاجتماعية ولوقت قريب كان العرق

والقبيلة يحددان بعض العلاقات في المجتمع .

ولكن انتشار التعليم وارتفاع الأصوات المنادية بنبذ

القبيلية والتدثر بدثار القومية السودانية خففا من

ذلك. فقد نادى الشاعر يوسف مصطفى التتي منذ

فجر الاستقلال للقومية السودانية:

نحن للقومية النبيلة

ما بندور عصبية القبيلة

تربى فينا ضغائن وبيلة

تزيد مصائب الوطن العزيز

وفي ذات الاتجاه نظم العبادي أبياته المحفوظة

لدى أغلب السودانيين:

جعلني شايقي دنقلاوي إيه فايداني

غير ولدت خلاف خلت أخوي عاداني

خلو نباننا يسري للبعيد والداني

يبقى النيل أبونا والجنس سوداني

### المقدمة:

قضية الهوية في السودان من القضايا المهمة

والشائكة التي ظلت تمثل حضوراً دائماً بل ملحاً

على الصعيدين السياسي والاقتصادي. منذ

استقلال السودان وإلى وقتنا الحاضر، كلما حاول

السودانيون في مؤسساتهم التشريعية كتابة دستور

البلاد الدائم تبرز قضية الهوية بمكوناتها إلى

طاولة المناقشات، ويدور حولها الجدل وتتشعب

فيها الآراء، ذلك على الصعيد السياسي أما على

الصعيد الاجتماعي فما يزال الناس في السودان

يتأرجحون بين الانتماء إلى القبائل والأصول التي

ينحدرون منها وبين الانتماء للوطن الذي يضمهم.

في الظروف العادية هم سودانيون ولكن عند

الاختلاف وخاصة عندما تتعارض المصالح

والمنافع فسرعان ما يتحولون في انتمائهم

القبلي. مما جعل بناء الهوية السودانية بناءً هشاً،

يتصدع وتظهر شروخ النسيج الاجتماعي عندما

تتعارض المصالح على مستوى سبل كسب

العيش. ما نسمع ونشاهد من نزاعات مسلحة هنا

نقول بانتشار التعليم وارتفاع الأصوات  
المنادية بالقومية السودانية خفتت . ولكن لم تختف  
تماماً . القبلية في السودان .

نضيف لذلك أن غالبية الشباب اليوم لا يلتفتون  
للعرق كثيراً وفي هذا مؤشر جيد لصالح الهوية  
الوطنية المتماسكة . ولأهمية هذا الموضوع جاءت  
محاولتي في هذه الورقة لطرحة للنقاش . ولعل  
النقاش والحوار حوله يعضد ويقوي التوجه القومي  
ويسهم في بناء شعور السودانين بانتمائهم للوطن  
الأوسع والتخلص من شعورهم بالانتماء القبلي  
الضيق . والانتماء الوطني هو ديدن الشعوب  
الراقية والأمم الناهضة .

اتبع الكاتب في هذه الورقة المنهج الاستقرائي  
بشقيه التاريخي والوصفي ، ففي الشق التاريخي  
تتبع حركة العناصر البشرية التي كانت موجودة  
فيه أصلاً والعناصر الداخلة إليه من مختلف  
المعابر . أما الوصفي لوصف جغرافية السودان  
وتوضح كيف أسهمت لحد كبير في أماكن  
استقرار تلك العناصر ، كل منها بقدر ما يستطيع  
من تسخير للبيئة السودانية حسب إمكاناته  
 واحتياجاته ووسائله .

يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه (شخصية  
مصر) : أن الجغرافيا هي التي تصنع التاريخ .

ويقول العالم البلجيكي : إليسي ريكلور Elisee  
Reclur : الجغرافيا هي التاريخ من حيث المكان  
والتاريخ هو الجغرافيا من حيث الزمان . وفي  
قضية الهوية السودانية تتعانق الجغرافيا مع

التاريخ ويصبحان وجهان لعملة واحدة يصعب  
الفصل بينهما . بل يصبح الفصل بينهما تعسفاً .  
السودان ، الاسم والموقع :

لفظ السودان لفظ عربي الأصل يعني بلاد السود  
أو أرض السود . يقول مدثر عبد الرحيم أنها  
استخدمت بواسطة العرب في القرون الوسطى  
لتشمل سكان الأقاليم التي تسكن جنوب الصحراء ،  
من البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى المحيط  
الأطلسي شمالاً وغرباً ، (شبيكة 1964) .

أما المسمى الحديث للسودان فيعني به السودان  
الدولة التي استقلت من الاستعمار البريطاني عام  
1956م ، التسمية ذات بُعد جغرافي أيضاً . المناخ  
السوداني ، فالمنطقة التي يشملها السودان الحديث  
كانت تعرف عند الساميين القدماء وكُتِّب الإنجيل  
بأرض كوش . أما الرومان فيعرفونها بإثيوبيا  
وتعني السود . وفي القرن الثالث الميلادي أصبحت  
تعرف ببلاد النوبة بدلاً عن مملكة كوش وبلاد  
إثيوبيا . وفي القرن السادس عشر وبعد انتشار  
الإسلام قامت فيه مملكة الفونج والتي سميت  
مملكة سنار أو السلطنة الزرقاء في المنطقة التي  
تكوّن وسط السودان الحالي . انحصر اسم النوبة  
حالياً في الولاية الشمالية وجبال النوبة في جنوب  
كردفان . وانفصلت إثيوبيا لتكون بلاد اثيوبيا  
الحالية .

معلوم أن السودان بحدوده المعروفة حالياً تكون  
مع بداية غزو محمد علي باشا للبلاد 1821م  
وأصبح تحت الخلافة العثمانية جزء من الإدارة

العثمانية المصرية في الفترة 1821-1885. وقد كانت حدوده في هذه الفترة تتأرجح شمالاً وجنوباً حسب موازين القوة الاستعمارية للإنجليز والفرنسيين والألمان والأتراك المتنازعين حول ثروات أفريقيا جنوب الصحراء. والسودان في الوقت الحاضر قطر شاسع يمتد من خط عرض 10 إلى 22 شمال في مساحة تبلغ 1.884.000 كلم تشارك السودان في وضعه الراهن سبع دول أفريقية: هي ليبيا ومصر في الشمال وإثيوبيا وإريتريا في الشرق ودولة جنوب السودان في الجنوب وجمهورية أفريقيا الوسطى وتشاد في الغرب والشمال الغربي.

#### الموقع:

يقع السودان في قلب القارة الأفريقية.، هذا الموقع جعله بمثابة الجسر الذي يربط شرق القارة بغربها وشمالها بجنوبها. كذلك يمثل السودان معبراً بين المنطقة العربية وداخل أفريقيا. والسودان بإطلاله على ساحل البحر الأحمر ووجود قناة السويس هو أقرب الطرق إلى أوروبا والعالم القديم. مما جعله عامل جذب لكثير من الهجرات كما سنرى فيما بعد. فالموقع الجغرافي للسودان من حيث الوسطية في أفريقيا مع اتساع الرقعة الجغرافية منح السودان التنوع المناخي الذي انعكس على تعدد البيئات الطبيعية مما جعله يذخر بموارد طبيعية هائلة.

الموقع الجغرافي للسودان جعل الأحداث السياسية فيه تنعكس على دول الجوار سلباً أو إيجاباً، مما

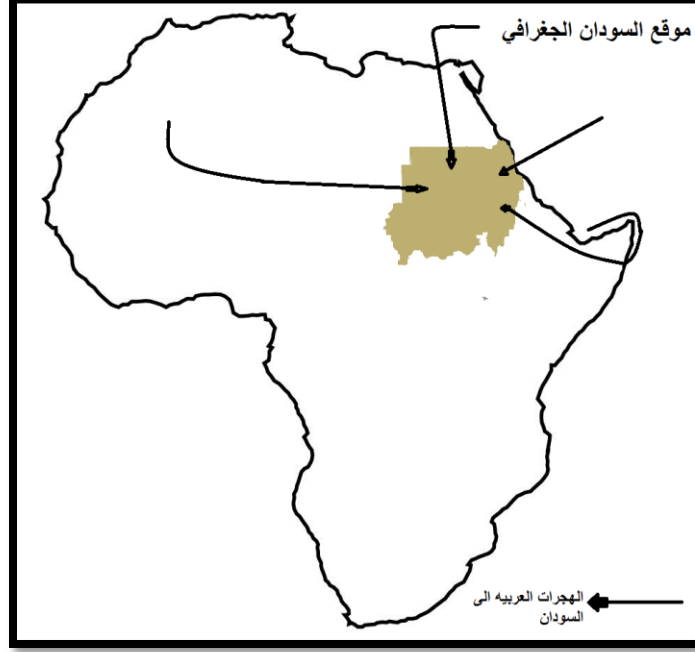
- جعل المحللين في تلك الدول يهتمون بالشأن السوداني، وكانت كل الجهود تهدف لإنهاء حرب أهلية طال أمدتها انعكست سلباً على دول الجوار.
1. **مصر:** لا تريد سوداناً مقسماً تزداد به المنافسة على الثروة المائية لنهر النيل.
  2. **تشاد:** تستضيف أعداداً من اللاجئين السودانيين الفارين من الحرب في دافور ومعظمهم من قبيلة الزغاوة التي لها فروع في تشاد ومنها الرئيس التشادي إدريس ديبي. الذي تربطه علاقة القربى ببعض أعضاء مجلس قيادة ثورة الإنقاذ في بدايتها.
  3. **كينيا:** يعتقد وزير الدفاع الكيني، مارسون مادوكا أن أي أوضاع غير مستقرة في السودان تشكل تهديداً أمنياً كبيراً على كينيا.
  4. **أفريقيا الوسطى:** بقول كوم زومارا مستشار الرئيس لشؤون الدفاع إن الحركة الشعبية كانت تدخل إلى أراضي أفريقيا الوسطى في مواسم الجفاف للحصول على إمدادات غذائية وغيرها. وإن استقرار الأوضاع في السودان يساعد على تطوير التجارة بين البلدين.
  5. **ليبيا:** ان استقرار السودان يوقف تدفق المهاجرين السودانيين إليها. كما يساعد على توفير الامن لازدهار حركة التجارة الحدودية بين الدولتين .
  6. **إريتريا:** الاستقرار الأمني في السودان يشجع التجارة الحدودية ويوقف تدفق الاجئين من الدولتين (إريتريا والسودان).
  7. **أما جمهورية جنوب السودان:** فهي أكبر المستفيدين من إحلال السلام في السودان وهي كذلك أكبر الخاسرين من اضطراب الأوضاع فيه.

8. إثيوبيا: باستقرار السودان تتوسع التجارة بين البلدين وتسعى لعمل طرق إلى منافذ لها عبر ميناء بورتسودان والبحر الأحمر.

### دول الجوار العربي:

الأوضاع المستقرة في السودان تساعد على خلق علاقات جيدة واستثمارات عربية كبيرة في

السودان. لذلك تدعم كثير من الدول العربية جهود السلام والمبادرات بشأنه مثل (قطر، السعودية، ليبيا واليمن... إلخ). هذا في الوقت الحاضر، أما في الماضي فقد تأثر السودان في علاقاته بكل من أفريقيا والعرب مما انعكس على مكوناته الثقافية وهويته كما سنفصل فيما بعد.



الخريطة: موقع السوداني الجغرافي

## مفهوم الهوية:

تمثل قضية الهوية الوطنية لشعب السودان بمحدداتها وملامحها وتوجهاتها العامة واحدة من أكبر القضايا الوطنية التي تمثل حضوراً كاملاً في مسار حركة التطور الوطني. بجانب أنها تمثل مرتكزاً أساسياً في بناء الوحدة الوطنية. كذلك لها بُعد يتصل بقضية التنمية بكل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية. فلا تطور ولا وحدة وطنية ولا تنمية في بلد تتقاذفه الصراعات وتفكك أوصاله النزاعات وتهد قواه الحروب. كل ذلك يسبب عدم الاتفاق والتراضي حول قضية الهوية.

قبل الحديث عن مكونات الهوية السودانية نعرض بإيجاز لتحديد المفاهيم المرتبطة بها. معلوم أن علماء الاجتماع يقسمون الهوية إلى ثلاثة أقسام تبدأ بالهوية الفردية أو هوية الشخص ذاته كفرد وهي ليست ضمن موضوعنا الذي نحن بصددده. القسم الثاني: هو الهوية الجماعية أو الوطنية. وهي محور الحديث في هذه الورقة. القسم الثالث: هو الهوية العامة أو الحضارية أو الثقافية، وهذا القسم لا يبعد كثيراً عن موضوع الورقة في عمومها

يُعرف علماء الاجتماع الهوية في مفهومها العام بأنها الصفة التي يتمايز بها الأفراد أو الجماعات عن بعضهم البعض، وتتحدد بها حالتهم. على الصعيد الفردي تعني التمايز، أما على الصعيد الجماعي فتعني التمايز والتماثل في آن واحد، (دياب 2002).

اكتسبت الهوية الوطنية أهميتها من أنها ترتبط بتحديد انتماء الفرد لمجموعة. هذه المجموعة في الماضي تتمثل في العشيرة والقبيلة أو الطائفة الدينية أو الحزب. كانت تلك الوحدات الاجتماعية وعاء أو إطاراً ينتمي له الفرد لأهداف مبتغاة لدى الطرفين أبرزها: الحماية وهي ما يطلبه الفرد من القبيلة أو الدفاع والولاء وهو ما تطلبه القبيلة والطائفة من الفرد المنتمي إليها. كان ذلك عندما كان الأمن والحماية والدفاع بيد الفرد والقبيلة والطائفة. ولكن بمقتضى سنن التطور فالمجتمعات الحديثة أصبحت تنضوي تحت وحدات ذات نطاق أوسع هو الدولة أو الوطن، ولم يعد الأمن والحماية من مسئوليات الأفراد بل هو من أوجب واجبات الدولة. لذلك توسع مفهوم الهوية الوطنية وصارت له شروط. فالمفهوم المعاصر للهوية الوطنية تخطى مفهوم التماثل مع العائلة أو الطائفة أو القبيلة فأصبح التماثل مع الجماعة أو المجتمع الذي تضمه الدولة وهو سمة مجتمعات العصر الحديث التي تتأطر في الدولة. وبذلك أصبح للهوية الوطنية مفهوماً معاصراً: بأنها حالة سياسية إرادية خالصة تقوم على الاتفاق وعن وعي تام بين سكان وطن معين هو مجتمع الدولة، (دياب 2002).

### إذن من شروط الهوية الوطنية:

1. إنها حالة سياسية توجد في وطن أو أرض عليها شعب مقيم له حكومة ذات سيادة.

2. توفر الإرادة لدى الفرد أو الأفراد أو الجماعات للانتماء لمجتمع الدولة.

3. توفر الوعي بين السكان بأن انتماءهم للوطن وليس للقبيلة فقط.

4. الرغبة في العيش في مجتمع سياسي أي مجتمع الدولة بالمفهوم الحديث لها.

#### مكونات الهوية:

يرى علماء الاجتماع أن محددات الهوية هي العنصر والدين واللغة وترى جماعة أخرى أن محدداتها تتمثل في العرف والثقافة، الدين، الأرض والدولة.

في موضوع العنصر يرى بعض علماء الاجتماع بأنه ليس مكوناً أساسياً، ويدعمون رأيهم هذا بأن من بين عدد 182 دولة من دول العام ، 12 دولة فقط هي التي يتوفر لها التجانس العرقي واللغوي. فما دام هنالك عدد مهول نحو 170 دولة لها هويات قوية ومتماثلة بدون توفر وحدة العنصر معنى ذلك أن العنصر ليس مكوناً بغيابه لا تقوم هوية.

لكن في الحالة السودانية مكون العنصر لا يكون بمعزل عن بقية المحددات الأخرى لأن العناصر البشرية في السودان إن كانت وافدة، جاءت ومعها لغاتها وثقافتها. وإن كانت محلية فهي كذلك كانت لها حصيلتها الثقافية الفكرية والعقدية... إلخ

ستعرض فيما يلي من أوراق المحددات التالية في قضية الهوية السودانية ونبدأ بالعنصر. وقبل ذلك بالنظر لحالة الاقتتال والاختلاف والصراعات المسلحة. نطرح الأسئلة التالية: في الحالة السودانية هل يمكن أن يكون العنصر من محددات الهوية في السودان؟ ونطرح سؤالاً آخر متى يكون العنصر محدداً من محددات الهوية السودانية، ومتى يكون العنصر مهدداً من مهددات بناء الهوية السودانية؟ وما العناصر التي يتكون منها المجتمع السوداني؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، نلقي نظرة سريعة على العلاقات العربية الإفريقية الأولى لعلها تساعدنا في الإجابة عن السؤال الأخير. فقد كان للهجرات العربية دور أساسي وفاعل فيما وصلت إليه العلاقات العربية الإفريقية سواء قبل ظهور الإسلام أو بعد ظهوره. يمكن القول أن العوامل الجغرافية الطبيعية ساعدت على ذلك خاصة وإن البحر الأحمر كان يمثل أداة من أدوات الربط والاتصال البشري بين آسيا وإفريقيا. يضاف إلى ذلك بوغاز باب المنذب ، والذي كان يمثل شرياناً طبيعياً اتخذته القوى البشرية في آسيا وفي جزيرة العرب على وجه الخصوص مساراً للهجرة لإفريقيا. يضاف إلى ذلك نهر النيل الذي كان يعتبر أحد الشرايين الطبيعية في عملية الاتصال بين العرب والأفارقة. (انظر الخريطة الهجرات العربية إلى السودان).

من المعلوم أن العرب لم يصلوا إلى إفريقيا أو إلى السودان دفعة واحدة وإنما كانت هجرتهم على مراحل، وعبر قرون من الزمن ومعلوم تاريخياً إن عرب اليمن قد هاجروا إلى الهضبة الحبشية في زمن يرجع للقرن العاشر الميلادي ومن هناك وصلوا حتى حدود السودان الشرقية. ليست الهجرة

العربية إلى السودان كانت مقصورة على بلاد اليمن. فقد كان سكان الحجاز يعرفون السودان قبل الإسلام. بل إن الممالك المنتشرة حول بحيرة تشاد إلى الغرب من السودان (برنو، كانم، وداي) ينتسب رجالها إلى سيف بن ذي يزن. والحقيقة الراجحة أنه قبل تدفق العرب الفاتحين لمصر بزمان طويل اخترقت جماعات عربية البحر الأحمر ونزلوا السودان الشرقي. وكثيراً ما اتخذوا لأنفسهم زوجات من القبائل الحامية (البجا). ثم إن معاهدة آلبقط 651م في بنودها بند يضمن هجرة العرب إلى بلاد السودان وكانت هجرتهم في مراحل: المرحلة الأولى كانت للتجارة والرعي، ثم مرحلة ثانية بعد أن ضعف سلطان العرب في مصر وظهر المماليك ومن خلفهم على حكم مصر استمرت الهجرة العربية إلى السودان. أما المرحلة الثالثة والتي كانت أكبر الهجرات وأعماقها أثراً فهي هجرة العرب بعد سقوط دولة علوة المسيحية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر (حسن 2009). بالنظر لأسباب الهجرة العربية إلى أفريقيا وإلى السودان ويمكن القول أن هناك أسباب كثيرة من ضمنها:

1. التجارة عبر البحر الأحمر بين مصر والعرب والسودان ولعل قرب الساحل الأفريقي من بلاد العرب كان من العوامل المساعدة على حركة العرب إلى أفريقيا.
2. الظروف الطبيعية القاسية في جزيرة العرب تقف وراء الهجرة العربية إلى خارجها.
3. البحث عن الثروات وخاصة الذهب في وادي العلاقي كان وراء الهجرة العربية إلى السودان.
4. يقول يوسف فضل حسن في مقدمة تاريخ الممالك الإسلامية في السودان جذبت علوة غير التجار مجموعات من البدو ممن لم يغرها الاشتغال بالتعدين والعمل في نقل البضائع الشرقية، بل كان هدفها الوصول إلى المراعي الشاسعة التي اشتهرت بها علوة. فتسربت تلك المجموعات في بطن ويسر داما قروناً حتى اختلطت بالوطنيين (ص: 23-24) وفي ذات السياق يقول البروفيسور يوسف لم يستقر العنصر العربي في الشمال لقلّة الأمطار في بلاد النوبة وضيق الأراضي الزراعية على شاطئ النيل. فكان من الطبيعي أن ينداحوا جنوباً إلى علوة حيث يتوافر المرعى وتتسع الأراضي الزراعية. وبعد سقوط مملكة علوة تدفق العرب في أعداد كبيرة حتى غلبوا أهلها على أمرهم. بعد الهجرة والاستقرار في بلاد السودان كان التزاوج والمصاهرة ثم الانصهار الهادئ بين العناصر العربية الوافدة والعناصر الإفريقية الموجودة أصلاً فيه. كان الناتج من ذلك التمازج الإفريقي العربي الواضح في تركيبة الشعب السوداني الهجين الأفروعربي.

يقول الشاعر صلاح أحمد إبراهيم واصفاً ومعللاً لتركيبه أهل السودان في قصيدة فكر معي ملوأل:

قبل أن تتكرني أسمع قصة الجنوب والشمال  
حكاية العداة والإخاء مذ قدم العربي حامل السوط المشل وللجمال  
حل على بادية السودان كالخريف بالسنة والكتاب  
يحمل في رحاله طموح هولوح وتمرتين في جراب  
وشجر الأنساب  
لاقيه في تقلي في الترة الخضراء في كاكا وتيجان الأقمار والعلياب  
تقتحت حقيقة سمراء في أحشاء كل أم ولدت منهن من بنات جدك الأكبر  
مما بذرتة نطف الأعراب  
فكان منها الفور والفونج وكل سحنة فاحمة ورسة غليظة  
وشعر مفلل ذر على إهاب  
حقيقة كبيرة عارية كالليل كالتمساح كالمنيف فوق كسلاً سليطة الجواب  
كذاب الذي يقول في السودان أنني النقي العرق  
إنني المحض أجل كذاب

### للإجابة عن الأسئلة المطروحة سابقاً.

1. هل يمكن أن يكون العنصر محدداً من محددات الهوية السودانية؟
2. متى يمكن أن يكون العنصر مهدياً من مهددات الهوية السودانية؟
3. مم يتكون العنصر في المجتمع السوداني؟

### للإجابة عن السؤال الأول: نقول نعم للاعتبارات التالية:

أولاً: إن شعب السودان ليس هو الشعب الوحيد الذي تتعدد فيه الأعراق فكثير من بلاد العالم أمكن بناء هوية وطنية رغم التعدد العرقي.

ثانياً: إن تعدد الأعراق في السودان جاء نتيجة طبيعية ومخاض سهل بعد اختلاط العناصر العربية بالعناصر الإفريقية وامتزاج دماهما بالقبول والرضا. لأن العنصر العربي لم يدخل السودان فاتحاً لنشر الإسلام وكذلك لم يدخله غازياً طالباً لملك وإنما بالمعايشة والاقتران بالسلوك والصفات الحميدة تقبل العنصر الأفريقي الوطني العنصر العربي المهاجر. والشاهد على ذلك إن إحلالاً تلقائياً تم للغة العربية مكان اللغات المحلية وإن النوبة طواعية تركوا المسيحية وتحولوا لاعتناق الإسلام. (البوني 2003)، وعن طريق الأعراف الأفريقية المحلية انتقل السلطان من يد النوبة لأبناء بناتهم وبدا تحول السلطان للعرب في السودان.



أما عن السؤال الثاني: متى يمكن أن يكون العنصر في السودان مهدداً من مهددات الهوية السودانية؟ فإننا نستصحب في ذهننا التعدد الإثني الناتج من الامتزاج العربي الإفريقي فقد تكونت في السودان نحو خمس وستين مجموعة عرقية. نتحدث نحو أكثر من مائة لغة، (جابر 2003) ، ففي هذا التعدد الواضح متى ما حاولت إحدى المجموعات أن تعتبر نفسها هي الأصل وما عداها الفرع. وهي السيدة وما عداها الرعية التابعة، متى ما حاولت إحدى المجموعات احتواء الآخرين استعلاء عليهم أو إنكاراً لوجودهم فإن ذلك يجلب عواقب وخيمة ويكون الخاسر فيها كل الأطراف لأن ذلك بالضرورة يقود للنزاع والصراع والاحتراق.

### الدين:

عرف السودان كل أنواع التدين سماوية وغيرها. ففي السودان عُبد الآلة آمون رع كما عُبد في مصر. وعبد في دولة كوش الأولى. كما عرف السودان عبادة آلهة محليين أبا دماك في عصر الدولة المروية ثم وجدت المسيحية طريقها إلى السودان أيضاً عبر مصر التي دخلتها من روما عبر الإسكندرية.

وجدت المسيحية فرصاً كثيرة في السودان منها عندما صارت ديانة البلاط الملكي في عهد الإمبراطور جستنيان وزوجه ثيودورا حيث أرسلت البعثات التبشيرية لبلاد النوبة مبشرين بالمسيحية، بل قامت في بلاد النوبة ثلاث ممالك مسيحية هي نوباتيا والمقرة وعلوة. عاشت تلك الممالك زهاء القرن من الزمان. انتشرت المسيحية من أقصى شمال السودان حتى قرب سنار على المذهبين المالكاني واليعقوبي. واعتنق النوبة المسيحية التي وجدت فرصة ثانية في عهد محمد علي باشا عندما طلب منه الغرب تيسير أمر البعثات الدينية المسيحية وإعفاؤها من الرسوم فكان لهم ما أرادوا. ثم وجدت المسيحية فرصة ذهبية ثالثة في عهد الحكم الثنائي 1899-1956م الذي قفل الجنوب في الفترة من 1927-1948م في الوقت الذي أطلقت فيه يد البعثات الدينية الإنجليزية والأمريكية والإيطالية. قفل الجنوب في وجه المد الإسلامي والثقافة العربية بقصد تكوين هوية ثقافية غربية مغايرة للثقافة العربية الإسلامية السائدة في الشمال. أما الإسلام فقد ساعد على انتشاره في السودان:

1. الإسلام دين بسيط لا يحتاج لوسائط بين الفرد وربه.

2. طبيعة الأرض الممتدة أمام العرب الرعاة والتجار وطالبي الرزق في غير هاتين المهنتين.

3. الطرق الصوفية الداعمة للإخاء في الله بسماحة ودبلوماسية تميز بها مشايخ الطرق الصوفية في

الدعوة للدين دون إكراه.

كانت نتيجة تلك العوامل أسلمة السودان الشمالي وتعريبه في حين لم يكن هناك اختراقاً ثقافياً عربياً وإسلامياً للجنوب لعوامل معروفة، لعبت فيها القوى الاستعمارية دوراً واضحاً. كان هدف القوى الاستعمارية وما يزال تفتيت وحدة السودان.

إن لغة الإحصاء تقول: إن 70% من سكان السودان مسلمون وإن 25% مسيحيون و 5% هم لا دينيون لهم اعتقاداتهم الروحية المختلفة المتمثلة في الكجور في بعض مناطق السودان والرث عند قبائل الشلك.

### اللغة كمحدد من محددات الهوية السودانية:

إنّ السودان بتنوعه العرقي الناتج من هجرة العرب إليه جرت فيه تحولات لسانية علاوة على الآثار العميقة التي تركتها على التركيبة العرقية والثقافية.

نلاحظ تلك التحولات الواضحة في إحلال اللغة العربية والإسلام محل معظم ما سبقها من لغات محلية. الصراع حول موضوع اللغة لم يكن محتتماً احتدامه في مكوني العنصر والدين. فاللغة العربية واللغات المحلية تتصارع ولكنه صراع مسالم كما يقول الدكتور نور الدين ساتي. اللغة العربية في وضع السودان المتعدد لغوياً (أكثر من مائة لغة) تستخدم أحياناً منفردة في المجالات الرسمية والإعلام والصحافة ولغة التدريس والدبلوماسية. لأن اللغات المحلية لا تقوى على أداء وظيفة اللغة العربية في هذه المجالات وفي بعض الأحيان تستخدم مشتركة مع اللغات المحلية. هذا الوضع أنتج ثنائية اللغة كعربي جوبا. وفي بعض الأحيان تغيب العربية في حالة بعض المسنين من المجموعات غير العربية.

قسم بعض دارسي اللغات الوضع بالنسبة للعربية واللغات المحلية إلى مناطق أسموها مناطق التداخل اللغوي، وهنا تظهر الجغرافيا لأن لتلك المناطق خصائصها الجغرافية التي جعلتها تتميز عن غيرها. فاللغة العربية رغم ما يبدو من سيطرتها إلا أنها ليست الوحيدة في الميدان فما تزال بعض أقاليم السودان تتحدث لغاتها الخاصة بها:

في الشمال النوبيون، في الشرق البجا، في الجنوب قبل الانفصال لغات الجنوب، في الغرب بعض المجموعات لها لغاتها الخاصة كالزغاوة والبرتي. وفي جبال النوبة لهم لغاتهم الخاصة المتعددة، في منطقة الانقسن لها لغاتها الخاصة أيضاً. ولكن بالنظر المتأنية نجد أن الوضع يسير في صالح اللغة العربية لأنه في مناطق التماس كلما يولد طفل وينشأ تكسب العربية متحدثاً بهاً وكلما يموت مسن تخسر اللغات المحلية متحدثاً. ويرتفع نصيب العربية بين الشباب وصغار السن. اللغة هي ماعون الأفكار وهي وعاء الثقافة. والثقافة السودانية هي خليط مما حمله معهم العرب من عادات وتقاليدهم

جاهلية وإسلامية وما ورثه أهل البلاد الأصليين من معتقدات وموروثات ولغات أفريقية. مما يزيد التوتر في قضية اللغة كمكون من مكونات الهوية:

1. كلما ذكرت اللغة العربية كلغة رسمية للسودان طالب الجنوبيون بوضع اللغة الإنجليزية (البوني 2003). وقد تحسس بعض المعارضين لمكون اللغة عندما اعلنت الخرطوم عاصمة للثقافة العربية.

2. اللغة العربية تحارب أو يتحسس الآخرون حولها لأنها ليست لغة محايدة بل هي لغة عقيدة وثقافة.

### الثقافة كمحدد من محددات الهوية السودانية

يرى محمد أحمد محبوب أن للبيئة الطبيعية (الجغرافيا) أثرها في إكساب الثقافة السودانية لوناً خاصاً وطابعاً مميزاً. لأن كل ثقافة تتأثر بالبيئة تأثراً واضحاً. لأن البيئة في مفهومه هي مجموع الأفراد الذين يعيشون على صعيد واحد ومجموع ما يحيط بهم. فالأشخاص يؤثر بعضهم على بعض، ويؤثر عليهم جميعاً ما يحيط بهم. وإذا علمنا أن الثقافة هي طريقة الحياة المثلى وأسلوبها والسعي وراء الكمال فإن عامل الثقافة يصبح مثار تجاذب واختلاف. لعل أكبر الاختلافات ما جاء حول هوية السودان الثقافية. وقبل أن نستعرض في توضيح جوانب ذلك الاختلاف. دعونا كما فعلنا في المكونات السابقة. ننظر في مكونات الثقافة السودانية. تلك المكونات لا يمكن مناقشتها بمعزل عن العنصر البشري بتعدد الذي أوضاعه سابقاً. فدخل العرب السودان عن طريق البحر الأحمر وصعيد مصر ومعبر سيناء وإسلام القبائل النوبية والبجا والهجرات العربية التي انفتحت لها الباب واسعاً بزوال دولة علوة (سوبا) (شبيكة 1964)، أتت تلك القبائل المهاجرة بتقاليد ومعتقدات جديدة على المجتمع السوداني آنذاك. فالعرب بإرثهم القبلي المتمثل في الاهتمام بالأنساب، ونصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً، وارتباط القبيلة أو فرعها برقعة جغرافية محددة كدار لتلك القبيلة، وغرى الضيف، وإغاثة الملهوف ونصرة الحليف... إلخ كلها تراث عربي نازل تشبعت به الثقافة السودانية التي تحمل في طياتها كل ذلك. أما الإسلام فبعد أن استقر في السودان وقبله النوبة كان انقلاباً ثقافياً. فقد اصطبغت كل حياة المجتمع السوداني في عقيدته وتعبده وممارساته الاجتماعية بالمورث الإسلامي. يقول قاسم عثمان نور ص: 102 (ما من حركة دينية أو عادة اجتماعية أو أصول مرعية بين الناس إلا ولها مغزى ديني. فالاحتفالات الجماعية هي أعظم الشعائر الدينية لأنها تعبر تعبيراً تاماً عن الحياة الخلقية والاجتماعية والفكرية للمجتمع).

إن السودان بوضعه الجغرافي الفريد بوسط القارة الإفريقية قد تأثر لحد كبير بتلك المؤثرات الخارجية. وإن رياح التغيير التي تهب على القارة الإفريقية منذ قرون بعيدة كان لها الأثر الأكبر في تشكيل معتقدات وطقوس سكان السودان. فالسودان الشمالي قد تأثر بمصر الفرعونية ومصر العليا. ومن المؤثرات المهمة اتصال غرب السودان بالممالك الإفريقية القديمة (مملكة غانا، مملكة وداي، مملكة البرنو) واتصال تلك الممالك بدول شمال أفريقيا لتبادل التجارة والمعرفة. فكانت تنبكتو والقيروان مصدر إشعاع معرفي في غرب أفريقيا وامتد إشعاعها ليشمل وسط القارة. كما كان كذلك إشعاع الأزهر في مصر.

ويمثل التصوف في السودان أثراً وشكلاً من أشكال انصهار الثقافات المصرية والإفريقية والعربية الإسلامية. فجميع الطرق الصوفية في السودان بلا استثناء تحرص على الرايات والبيارق وهي رمز إسلامي لازمت الطرق الصوفية منذ نشأتها وتكوينها. وقد دخلت الرايات إلى السودان مع المسلمين الأوائل الذين حرصوا على نشر الدعوة الإسلامية. بجانب الرايات، فهناك الطبول والدفوف التي تستخدمها وبالأخص الطريقتان القادرية والسمانية حيث تشكل الطبول (النوبات) والدفوف (الطارات) وسائل هامة في حلقات الذكر الصوفي. وتبدو حلقة الذكر خليطاً من الإرث الإسلامي والتراث الإفريقي. فالطبول بلا شك هي إرثٌ أفريقي، والدفوف هي إرثٌ نوبي والر ايات والمنشدين هي إرث إسلامي. وقد امتزجت كل تلك الثقافات فجاءت حلقة الذكر الصوفي معبرةً عن الثقافة العربية الإفريقية. فعندما دخلت الطريقة القادرية السودان في القرن الخامس عشر مملكة سنار، وجدت مجتمع الفونج ذا الأصول الإفريقية تستهويه دقات وإيقاعات الطبل الأفريقي. فأضيف الطبل الكبير والصغير إرضاءً للذوق والمزاج الأفريقي. (قريب الله 1999) ففي حلقة الذكر تقرع الطبول في عنف ويتميل الذاكرون على إيقاعها. وقد عبّر عن ذلك الشاعر محمد المهدي المجذوب في قصيدة (ليلة المولد) قال فيها:

وهنا حلقة شيخ يرجح  
يضرب النوبة ضرباً فتنن  
ثم ترفض هديراً أو تجن  
وحواليها طبول صاخات في الغبار  
وحولها الحلقة ماجت في المدار  
نقرت ملء الليالي  
تحت رايات طوال  
كسفين ذي سوار  
في عباب كالجبال

فالأثر الأفريقي في الثقافة السودانية ليس قاصراً على حلقات الذكر الصوفي وإنما يمتد إلى العادات والتقاليد وطقوس العبور (الولادة، الزواج والموت). فالسودانيون مغرمون بإظهار تلك الطقوس في حياتهم العامة والخاصة.

الاختلاف حول مكون الثقافة يظهر في آراء الذين بحثوا قضية الثقافة السودانية. من الباحثين من إتكأ على التاريخ، فرجح الأثر العربي ونادى بأن ثقافة السودان عربية بحكم غلبة العنصر العربي. في المقابل نادي تيار آخر غلب جانب الأفريقية في الثقافة السودانية بحجة أن السودان أصلاً أفريقي أرضاً وسكاناً. وبين هؤلاء وأولئك جاء تيار عقلائي وسطي برؤية توفيقية بين الفريقين السابقين. وقال إن الثقافة السودانية ذات مكون أفريقي وآخر عربي وبالتالي أن ثقافة السودان ثقافة هجين بأصول إفريقية وملامح عربية. وهذا الرأي يجد القبول والتأييد وسط جمهور الباحثين وغالبيتهم.

#### الخاتمة:

الهوية السودانية ما تزال هشة لم يقو عودها بعد، وذلك بفعل عوامل الاختلاف حول مكوناتها. وقد تعرض كتاب وباحثون في علوم الاجتماع، الاقتصاد، السياسة لهذه القضية الشائكة. وما يزال التفكير فيها يتراوح بين مد الرغبة في تحديد هوية سودانية 100% وجزر الخلافات حول مكونات تلك الهوية السودانية بين النخب السودانية كل حسب معتقداته ومحدداته الفكرية. قامت الدولة الوطنية في السودان على موروث يمثل التجمعات القبلية والطائفية والعقائدية السياسية غير المتكاملة مع بعضها البعض. ومما زاد في تعقيد الأمور في وجه الحكومات الوطنية المتعاقبة شح الموارد وعدم استغلالها الاستغلال الأمثل. فجاءت التنمية غير متوازنة مما ولد الغبن الجهوي. يضاف لذلك اتساع الرقعة الجغرافية وعجز أجهزة الدولة المركزية والإقليمية والمحلية من الوصول إلى أطراف الدولة. أتي كل ذلك بالتمرد المسلح بسبب التهميش كما يزعم المتمردون. فحيال هذا التعقيد تجد الدولة نفسها عاجزة عن التغلغل الجغرافي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي في كل أقاليمها. فإذا أضفنا إلى ذلك نقص الخدمات وعملية الاستقطاب النخبوي والعرقى، والحال هذه في السودان فكل مطالب بالحل دون مراعاة الظروف الموضوعية للبلد يكون بمثابة معول هدم في بناء الهوية الهش.

كل هذه الأشياء التي ذكرت ليس من مكونات الهوية ولكنها جواد مسرجة ليمتطيها المتمدون حاملو السلاح بدعاوى التهميش، والمغبونون لشعورهم بالظلم الاجتماعي وبأن ظلال التنمية مقصورة على

فئات وأقاليم محددة وهم محرومون منها. فقد آن الأوان أن يفكر السودانيون بعمق في قضاياهم ومن بينها قضية الهوية.

بانفصال الجنوب ومهما كانت الأسباب يكون مشجب الاستعمار وما فعله للوصول لهذه الغاية قد سقط من اليد التي ظلت تتحجج به. فانفصال الجنوب لا ينفى أنه لا يزال في السودان تعدداً عرقياً وتعدداً دينياً، فإن كان الجنوبيون حائقون لأن غرس التنمية على ضآلته لم يصلهم هاهم الآن قد انفصلوا، فالأمر ما يزال يحتاج لمعالجات تشترك فيها كل القوى الوطنية من أكاديميين ومفكرين في علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد بل وكل أجهزة الدولة وقاعدة المجتمع العريض مطالبة بالسعي الجاد والدعوى لحل قضايا البلاد. في مجال الهوية، التنمية بكل أنواعها، بسط العدالة الاجتماعية والحرية والديمقراطية حتى يسهم الكل في بناء هوية السودان والخروج به من هذا النفق. **التوصيات:**

1. غرس وتعزيز روح الانتماء للوطن وذلك بزيادة الجرعة في الدروس الوطنية ليشب الصغار على حب الوطن والاعتزاز به.

2. زيادة الوعي والإدراك بين الكبار بأن الولاء للوطن يأتي أولاً وقبل الولاء للقبيلة أو الطائفة أو الحزب، وذلك بتسخير كل وسائل الإعلام لخدمة هذا الموضوع، سيما وأن الإعلام في الوقت الحاضر أصبح من الخطورة بمكان فإن وجه للبناء القومي يمكن أن يتحقق ذلك.
3. الاعتراف بأن السودان متعدد عرقياً وثقافياً ودينياً، والمطلوب هنا جعل كل العمل يصب في مجرى الهوية الوطنية المتناسكة. فالسودان لم يعرف التعصب العنصري ولم يعرف الفتن الدينية ولا المذهبية، بل كان السائد فيه التسامح والتعايش. ويمكن أن يعود المجتمع السوداني سيرته الأولى إذا خرج الجميع من روح الاستقطاب العرقي والجهوي والديني والمذهبي.

4. التنمية المتوازنة التي يشعر الجميع بأن لهم نصيب فيها، وإشاعة العدالة الاجتماعية بين المواطنين.

5. سعي الدولة بكل جهدها لربط الأطراف بالمركز وتفعيل وجودها الجغرافي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي في تلك الأطراف.

6. إن كان المثل الشعبي يقول: الجفلن خلهن أقرع الواقفات. فإن الواقفات في بعض أقاليم السودان مهياة بأن تجفل إن لم يكن الراعي بصيراً، عليماً، حليماً وحكيماً: بصيراً بأن له بُعد نظر وإستراتيجية ومنهج واضح للم الشمل، أما عليماً فهو يعرف أسباب المشاكل ومعقداتها. وأما حليماً يتسع صدره للرأي والرأي الآخر، ويسوس الناس بما جبلوا عليه من حب للحرية

ونزوع إلى الديمقراطية. وأما كما نقول في السودان "ولذلك إن كبر خاويهم؛ فما بال الفرقاء وطالبي كرسي الحكم الذي يجلس الحكام عليه، فتوسيع مواعين المشاركة في الحكم والتبادل السلمي للسلطة والتوزيع العادل للثروة أوجب موجبات وقتنا الراهن.

### قائمة المراجع:

- إبراهيم ، طه . بدون تاريخ - حق القوميات في حكم ذاتي داخل أممها - المركز الطباعي . الخرطوم
- أبو سليم ، محمد إبراهيم ( 1998م) دلالة التاريخ وأثرها في المواطن السوداني . سلسلة ثقافة للجميع ( 3) إدارة النسر الثقافي . وزارة الإرشاد والإعلام القومي - مطبعة النيل للطبع والنشر
- الباشا ، محجوب (1998م) التنوع العرقي في السودان - سلسلة أوراق إستراتيجية - الصفحات (3-23)
- البوني ، عبد اللطيف (1998م) الهوية السودانية مدخل تاريخاني - سلسلة أوراق إستراتيجية (2) - (الصفحات 6245)
- جابر ، جابر محمد ( 1998م) مفهوم التداخل اللغوي من منظور وحدوي - سلسلة أوراق إستراتيجية ( 2) : الهوية السودانية: المحددات، الإشكالات مقومات الوحدة
- الجنيدى ، شيخ الدين عثمان ولد البشيرى ( 1990م) كتاب تاريخ وأصول سكان بلاد مرة وكردفان وما جاورها من بلاد السودان - مطابع الحنفي الحديثة . الخرطوم
- حاكم ، أحمد محمد علي ( 1997م) كرمة . مملكة النوبة - تراث أفريقي من عهد الفراغة إلى 1997 - شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع . الخرطوم
- الحسن ، إدريس سالم ( 2000م) النظريات العلمية العنصرية بإشارة إلى السودان - مجلة محاور، العدد الرابع/الخامس ديسمبر 2000م، ص (98-110) - مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية . جامعة أمدرمان الأهلية
- حسن ، يوسف فضل (1999م) سلطنة الفونج الإسلامية: دورها في السودان وادي النيل - الصفحات (45-65)، دراسات أفريقية . جامعة أفريقيا العالمية - العدد 22 ديسمبر 1999م
- حسن ، يوسف فضل ( 2003م) مقدمة في تاريخ الممالك السودانية في السودان الشرقي ( 1821.1450 ) - الطبعة الرابعة سوداتك المحدودة . الخرطوم
- حمدنا الله ، عبد الله ( 2006م) المؤتمر الدوري: الإسلامي في أفريقيا، الكتاب الثاني: تبادل التأثير الثقافي الإسلامي بين علماء السودان وعلماء بحيرة تشاد - الناشر جامعة أفريقيا العالمية . السودان
- دياب : احمد إبراهيم ( 2002م) الهوية السودانية عبر التاريخ، دراسة تأصيليه ، معهد بحوث دراسات العالم الإسلامي، جامعة أمدرمان الإسلامية ، دوريات المعهد ، دورية رقم (3)
- داني ، محمد أحمد محمد (2005م) إدارة السودان الحديث: المسئوليات والتحديات - مطبعة جامعة الخرطوم . الخرطوم
- الزين ، قيصر موسى ( 1998م) فترة انتشار الإسلام والسلطانات ( 1641-1821) مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية . جامعة أمدرمان الأهلية
- سلسلة قضايا سودانية للنقاش - اتفاقية السلام: نهاية أم بداية جديدة لأطول حرب في تاريخ القارة السمراء - تقرير حول تأثير إحلال السلام في السودان على المنطقة .
- علي، حيدر إبراهيم (1995م) التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية في السودان - مركز الدراسات السودانية . القاهرة
- علي، مصطفى محمد (2002م) اللهجات العربية في الحزام السوداني الأوسط والشرقي - الصفحات (145-174) دراسات أفريقية . العدد 27، يونيو 2002م.
- عوض، عوض محمد ( 2002م) إذاعة أمدرمان وتأطير الهوية القومية للسودانية - الصفحات ( 79-110) - دراسات أفريقية . جامعة أفريقيا العالمية - العدد 27، يونيو 2002م
- قريب الله ، حسن الشيخ الفاتح الشيخ الطريقة السمانية الطيبية القريبة واتجاهات في التربية والسلوك - (الصفحات: 19-37) - مجلة دراسات أفريقية . جامعة أفريقيا العالمية. العدد 22 ديسمبر 1999م.

- الكريم ، عبد القادر عوض (2007م) دليل الأنساب في السودان - دار عزة للنشر . الخرطوم .
- مهاجر ، عمر ، (1998م) مهددات الهوية الوطنية وأشكالها والتمتية - سلسلة أوراق إستراتيجية ( 2 ) - الصفحات (45-62).
- نور ، أسامة (2004م)السودان: الموقع الجغرافي وأثره في منظومة الأمن القومي العربي، الملف الدوري ( 28 ) يناير . فبراير .
- مركز دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا . الخرطوم
- نور ، قاسم عثمان (2007م)أوراق سودانية . الكتاب التاسع- مركز قاسم لخدمات المكتبات . الخرطوم .